مقدمة تأريخية وجغرافية موجزة عن الأندلس قبل الفتح وبعده

عرفت بلاد الاندلس بأسماء كثيرة، أطلق عليها اسم " إيبريا، أو إيبارية، أو هباريا" نسبة الى الايبيريين الذين كانوا من أقدم سكان هذه البلاد. ويلاحظ أن ثمة صلة تربط بين إيبارية و"إشبانية أو إصبانية" حيث تحول المصطلح الأخير في لغة القرون الوسطى الرومانسية الى إسبانية Espana وقد أطلقه الفينقيون على الشاطئ الذي نزلوا به من تلك البلاد ويعني "شاطئ الأرانب" لكثرة ما وافقهم منها.

أما تسمية الأندلس فتقترن بدخول قبائل "الوندال" إلى إسبانية بعد الرومان وهذه التسمية "الأندلس" ترد بصيغ أخرى، هي: الأندلش، والأندليش، وفندلسيا، وفندلس Vandalos.

أما جغرافية الأندلس فتقع في الجنوب الغربي من قارة أوروبا، وهي أشبه بجزيرة تحيطها المياه من أكثر من جانب باستثناء سلسلة جبال البرت أو البرتات التي تفصلها عن جنوب فرنسا، فمن الشمال الغربي والغرب المحيط الأطلسي الذي يعرف بـ "البحر الأخضر أو البحر المحيط أو بحر الظلمات" ومن الشرق والجنوب البحر الأبيض المتوسط الذي يعرف بالبحر الرومي أوالبحر الشمالي أو بحر تيران، وتنتظم الأندلس سلاسل جبلية تضم وديااناً وأنهاراً كثيرة تحتل مساحة كبيرة، حيث تتركز سكان هذه البلاد في السهول الشرقية والغربية والجنوبية عند الانهار الكبيرة.

يروي المقري التلمساني "ت 1041هـ" في كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" أنه كان يشق الأندلس أربعون نهراً وبها من العيون والحمامات والمعادن ما لايحصى، والأندلس في شجرها وحجرها وترابها ومائها أشبه بشمالي أفريقيا وغرب آسيا (بلاد الشام)، كما إن تنوع جغرافية الأندلس جعلها فيما هي عليه من جمالٍ حيث اعتذر أحد ولاتها الذي يدعى أبو عمران موسى بن سعيد عن فراقها وكتب في جوابٍ لأبي يحيى صاحب سبتة الذي رغبه في تركها الى مراكش، فكتب يقول: "كيف أفارق الأندلس وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا بما حباها الله به من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وكثافة الأفياء. فطرف الانسان لايبرح فيها بين قرة عينٍ وقرارةِ نفسٍ" حتى بات قائلا:

هي الأرضُ لا وِردَ فيها مكدّرُ ولاظلَّ مقصورٌ ولاروضَ مُجدِبُ

أما تأريخ الاندلس فإن فكرة فتح الأندلس كانت قديمة وهي تعود إلى عهد الصحابي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان فاتحوها ثاني الجماعتين اللتين أشادَ بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثٍ شريفٍ عن فضل الجهاد في البحر، فبعد أن فتح المسلمون شمال أفريقيا واستقروا بها سنة 63هـ توجهت الانظار الى فتح الأندلس، فقد أرسل موسى بن نصير اثنى عشرألف جندي دخلوا جميعاً بأمرةِ طارق بن زياد وهو شخصية تاريخية بارزة في الاسلام، والذي تولى قيادة الجيش حيث عبروا من "سبتة" بمراكب تجارية قدمها "جوليان" حاكم سبتة، وقد نفذت هذه العملية في أثناء الليل واستغرقت أكثر من ليلة واحدة، وقد ذُكرت في الروايات أن طارقاً قد أمرَ بإحراق السفن بعد العبور الى الشاطئ حيث وقعت المعركة الفاصلة مع "لذريق" في 28 رمضان عام 92هـ واستمرت ثمانية أيام وفيها خطب القائد الاسلامي طارق بن زياد خطبته المشهورة التي حثَّ فيها الملسمين على الجهاد في سبيل الله لإعلاء راية

الحق ونشر الدين الاسلامي الحنيف، ولما بلغَ طارقاً دنوه من الاندلس فحمدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمّ حض الناس على الجهاد ورغبهم في الشهادة، ثم قال: "يا أيها الناس أين المفر والبحر من ورائكم والعدو من أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر . ألا وإني صادمٌ إلى طاغيتهم بنفسي، لا أقصّر حتى أخالطه أو أقتلَ دونه!"

لقد عرفت تلك الواقعة بأسماءَ كثيرة منها واقعة البحيرة، وادي لكة، وادي بكة، وادي البرباط ، وتشير الاخبار أن "القوط" إستهانوا بجيوش المسلمين ولكن النصر كان حليف المسلمين فاستمرت عملية الفتح عدة سنوات حيث توغل جيش المسلمين في أعماق شبه الجزيرة الإيبيرية.

مكونات المجتمع الأندلسي

يضم المجتمع الأندلسي عناصر شتى هم سكان البلاد الأصليين كما يضم الفاتحين المسلمين، كما وتعددت أصول سكان بلاد الاندلس وأجناسهم تبعاً لموجات الغزو والحروب التي تعرضت لها . فقد نزلها " السلتيون، والجلالقة، والبرابرة، والقرطاجنيون ثم استولى عليهاالرومان وقبائل الوندال والقوط"، وأبرز مكوناتها هي:

1. **(الأسالمة أو المسالمة) اسمٌ يطلق على الذين دخلوا الإسلام من أهل البلاد الأصليين، وأما أبناؤهم فيسمون (المولدون)، واحتفظ عدد كبير منهم بأسماء أسرهم القديمة مثل :" ابن بشكوال، بنوقومس، بنو مرتين..."**
2. **(الصقالبة) وهم الذين كان يؤتى بهم من مختلف البلاد الأفرنجية أطفالا ذكوراً وإناثاً فترعاهم الدولة وينشأون نشأةً إسلامية.**
3. **(المعاهدون أو المعاهدة) وهم اليهود والنصارى من أهل الذمة الذين اختلطوا بالمجتمع الأندلسي، وبعضهم تقبلوا اللغة العربية وتبنوا بعض العادات الإسلامية وسمّوا بالمستعربين**
4. **(المدجنون) وهم الأندلسيون الذين لم يهاجروا من مناطق الأندلس التي سقطت بأيدي الإسبان، فأطلقت عليهم هذه التسمية لأتها تصور حالتهم في ظل السلطة الإسبانية.**
5. **(المورسيكيون) ويقصد به المسلمون الصغار وهو تسمية أطلقت على مسلمي غرناطة بعد سقوطها بيد الإسبان ، وقد اضطروا لإظهار المسيحية وإبطان الإسلام ؛ لما كانوا يواجهونه من الاضطهاد الشديد على أيدي الإسبان.**

مظاهر حضارة وثقافة بلاد الأندلس

يتكون المجتمع الاندلسي من أجناس تنطوي على أصولٍ مختلفة ولغاتٍ متباينة يضم مجتمعاً موحداً متعاوناً في غالب العصور يقيم تلك الحضارة التي أشاعت النور فيما حولها بما كانت تحمله العقيدة الاسلامية القائمة على الفطرة السليمة التي تستجيب لمطالب الانسان

واحترام الأديان الأخرى، وكان الاندلسيون من أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ومنهم من ليس عنده قوت اليوم حتى تجده يبتاع صابوناً يغسل ثيابه ولا يظهر فيها ساعةً على حالةٍ تنبو العين منها.

وهم أهل احتياط وتدبير وحفظ لما في أيديهم خوف ذلّ السؤال، إذ ينكر أهل الأندلس طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الكدية فإنها مستقبحة عندهم ، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبّوه وأهانوه فلا تجد في الاندلس سائلاً إلا وهو صاحب عذر.

أما من بركةِ بلاد الاندلس فإن المسافر حيثما سار يجد الحوانيت في الأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الاطعمة.

أما مقام العلم عندهم فمقدم . فالعالم عندهم معظّم من الخاصةِ والعامة، والجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، قال المقري : " وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى أنهم كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه...وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات". وقد أشار المستشرق الهولندي دوزي في هذا المجال إلى أن كل فرد في الاندلس كان يعرف القراءة والكتابة على حينٍ كانت أوروبا تتخبط في دياجير الجهالة.

ومما يدل على التقدم العلمي حرص أهل الأندلس على اقتناء الكتب وحيازتها، حتى أن الرئيس منهم الذي لاتكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، لكي يقال فلان عنده خزانة كتب فقد انتشر التعليم في الاندلس انتشاراً عظيماً فظهر العلماء في كل ميدان ويروى أنه كان في الاندلس أيام الحكم المستنصر بالله (ت 366هـ) سبعون مكتبةً عامة عدا المكتبات الخاصة للمشاهير من الرجال والنساء فضلاً عن مكتبة قرطبة الرئيسة.

أما دور المرأة فلم يكن أقل من أخيها الرجل فقد شاركت المرأة في ميادين كثيرة واشتغلت بأكثر العلوم ، وتتضح مكانة المرأة الأندلسية من كثرة أعلام النساء اللائي يترجم لهن مصنفوا كتب التراجم حيث تذكر فيهن الشاعرة والكاتبة والعاملة والفقيهة والمتحدثة والواعظة واللغوية كما وعرف عدد منهن بحسن الخط ويشير ابن حزم الاندلسي في (طوق الحمامة في الألفة والألاف) الى ضروب المهن التي مارستها المرأة الاندلسية حيث نجد الطبيبة والحجامة والدلالة والكاهنة والمعلمة وسفيرات الحب ويحدثنا عن الخطط الاندلسية فخطة القضاء من أعظم الخطط عند العامة والخاصة لتعلقها بأمور الدين وخطة الشرطة ذات شلأن وصاحبها يعرف بصاحب المدينةوصاحب الليل وهو الذي ينفذ الأحكام ويطبق الحدود على المخالفين ومن الخطط كذلك خطة الاحتساب وصاحبها قاضٍ يمشي بنفسهِ على الاسواق يتابع البيع والشراء.

انتشار اللغة العربية في الاندلس

انتشرت اللغة العربية في بلاد الاندلس انتشاراً واسعاً في بيئةٍ لم يكن لها عهد سابق بهذه اللغة فقد كانت طبيعة اللغة العربية والحصائص التي ميزتها من إحدى العوامل التي أعانت على إقبال الأعاجم عليها في أغلب البلدان التي انتشر فيها الاسلام ، وقد كان دور الامير هشام

الأول مهما حين قام باصدار منشور يحتم فيه ضرورة تعلم اللغة العربية على المستعربين الذين يشاركون المسلمين في مدارسهم فضلا عن جميع سكان البلاد وبعد فترةٍ وجيزة من هذا القرار قام أحد رجال الدين الاسبان وهو القس الفارو القرطبي قام بتحرير رسالة على صيغة شكوى يوثق فيها إيثار الاسبان استعمال لغة العرب وأسماءهم وأزياءهم بل إن المستعربين قد اجتهدوا في أخذ الطابع الاسلامي في كل مناحي حياتهم ، فأخذ يقول: " إن إخواني في الدين يجدون لذةً كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة لا ليردوا عليها وينقضوهها بل لكي يكتسبوا من ذلك اسلوباً جميلاً صحيحاً...فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك وتجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق بل هم ينظمون في الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً".

وبذلك أصبحت اللغة العربية الفصحى اللغة الرسمية ولغة الدواوين واللاتينية كانت لغة السكان الاصليين ، أما اللغة الرومانثية فهي لهجة متفرعة من اللاتينية وقد عرفها عرب اللاندلس عن طريق الامتزاج بالاسبان بالزواج من نسائهم فتكونت أجيال جديدة يتكلم آباؤها العربية وأمهاتها الرومانثية،و بسبب هذا التداخل بين اللغتين العربية الفصحى والرومانثية ظهر فن جديد ابتكره الاندلسيون يعرف بفن التوشيح الذي اسلم بدوره الى فن الزجل الذي يمثل عامية الاندلس.